أهل البيت قادةٌ وأسوة

السيد منذر الحكيم

﴿ وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا ﴾

الهداية الربانية وحركة الإنسان الإرادية

لقد جرت سنّة الله ـ بمقتضى حكمته الفريدة ـ على أن يتسلّق الإنسان قمم الكمال بملء إرادته واختياره مسترشداً بعناية الله ورعايته وهدايته فـ ﴿ إنّ هدى الله هو الهدى ﴾[1].

ومن هنا جعل الله الهداية والإرشاد إلى سبيل الكمال فرضاً على نفسه كما قال : ﴿ إنّ علينا للهُدى ﴾[2] .

وتولّى هو نَصْبَ الهُداةِ ومشاعل النور على مدى الطريق الشائك في الحياة ، فقال : ﴿ وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا ﴾[3] .

وسلّحهم بجميع أدوات الهداية والإرشاد ، في أنفسهم وظروف نشأتهم وسلوكهم وحركاتهم وسكناتهم . .

فتوفّروا على عناصر : (المعرفة واليقين) ، (والانقياد التام للحقّ) ، (والصبر على

---

(١) البقرة : ١٢٠.

(٢) الليل : ١٢.

(٣) الانبياء : ٧٣.

النوائب) ، (والحِلم عند الشدائد) ، (وسعة الصدر) ، (وطهارة النفس : فكراً وخُلقاً وسلوكاً) ، (ودماثة الخُلُق) ، حتى بلوغهم قمّة العبودية لله سبحانه ونيلهم شرف الولاية الإلهية ووسام الهداية الربّانية لخلْقه وبريّته وعباده .

وأفصح عن أوسمة كمالاتهم هذه بقوله تعالى :

١ ـ ﴿ **بل عبادٌ مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾[٤] .

٢ ـ ﴿ **وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[٥] .

٣ ـ ﴿ **وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين** ﴾[٦] .

٤ ـ ﴿ **والسابقون السابقون أُولئك المقرّبون** ﴾[٧] .

وهكذا انتظمت سنّة الله في الهداية حيث يسّر الله للإنسانية جمعاء سلوك طريق الكمال اللائق بها ، وقرن ذلك بأنواع التوفيق وأصناف الترغيب والتحذير ليضمن تحقّق ما أراد وأحبّ .

ولكن الإنسانية هل انتفعت بهذه السُنّة الإلهية ، وهل استثمرت هذه الرحمة وهذا الفيض الربوبي ؟

لقد اختلفت ردود الفعل وتنوّعت الاستجابات لهذه الهداية .

فمنهم : من صمَّ أُذنيه وأغمض عينيه واستغشى ثيابه ولم يشأ أن يفكّر أو يتعقّل ليُبصر الطريق وينتهج السبيل الأمثل . وعبّر القرآن عن هؤلاء بقوله تعالى :

١ ـ ﴿ **فاستحبّوا العمى على الهدى** ﴾[٨] .

٢ ـ ﴿ **وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير** ﴾[٩] .

٣ ـ ﴿ **ومنهم من حقّت عليه الضلالة ، انّهم اتخذوا الشياطين أولياء** ﴾[١٠] .

ومنهم : من فتح عينيه وأصغى إلى نداء الحق بأذنيه ليستمع ويكتشف الحقيقة وليبصر طريق الهدى ويسلك سبيل النجاة عن فكر وتعقّل ورويّة .

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الصنف بـ «المهتدين» ، كما أنّه اعتبر الهداية ذات مراتب ودرجات قائلاً :

١ ـ ﴿ **هم درجات عند الله** ﴾[١١] .

---

(٤) الأنبياء : ٢٦.
(٥) الأنبياء : ٧٣.
(٦) الأنبياء : ٧٣.
(٧) الواقعة : ١٠ ـ ١١.
(٨) فصلت : ١٧.
(٩) الملك : ١٠.
(١٠) النحل : ٣٦.
(١١) آل عمران : ١٦٣.

٢ ـ ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات** ﴾[١٢] .

وهكذا صرّح بأن الهداية تقبل الزيادة والنقصان بقوله تعالى :

٣ ـ ﴿ **والذين اهتدوا زدناهم هُدىً** ﴾[١٣] .

وبهذا يتّضح أنّ المؤمنين على مراتب ، وليسوا جميعاً على حدٍّ سواء ، فمنهم من يقنع بأدنى مراتب الهداية والايمان ، ومنهم من يحرص على بلوغ أكمل مراتب الاهتداء وأعلى قمم الكمال .

وإذا أردنا أن نكتشف السرّ في تلك القناعة غير المحمودة وهذا الحرص الممدوح كان علينا أن نفتّش في جذور الهداية وأسباب الإيمان والاستباق والمسارعة إلى الخير والفلاح داخل نفس الإنسان لنكتشف مفاتيح هذا السرّ ونستلهم من ذلك نقطة الانطلاق إلى أعلى قمّة من قمم الكمال الإنساني المنشود .

فإنّ الله قد زوّد الإنسان بكل ما يحتاجه لبلوغ قمّة الأهداف المُثلى وزوّده بكامل الاختيار وحبَّب إليه حسن الانتخاب قائلاً :

١ ـ ﴿ **ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾[١٤] .

٢ ـ ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾[١٥] .

٣ ـ ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾[١٦] .

٤ ـ ﴿ **إن هذه تذكرةٌ فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلا** ﴾[١٧] .

***

إنّ علوّ الهمّة وعدم القناعة بأدنى مراتب الكمال يعود أحد أسبابه إلى وضوح الرؤية ونفاذ البصيرة وقوّة اليقين . وكلّها تعود إلى استرشاد العقل واستثماره بأحسن الأساليب وأعلى المراتب ، كما أفصحت الآيات المباركة عن منهج الاستثمار الكامل للعقل في سورة الزمر قائلة :

﴿ **فبشِّر عباد الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه أُولئك الذين هداهم الله وأُولئك هم أولو الألباب** ﴾[١٨] .

إنّ أُولي الألباب هم ذلك الصنف الممتاز من العقلاء ، وهم الذين يستحقون الهداية

---

(١٢) المجادلة : ١١.
(١٣) محمد : ١٧.
(١٤) الشمس : ٧ـ٨.
(١٥) البلد : ١٠.
(١٦) الكهف : ٢٩.
(١٧) الأنسان : ٢٩.
(١٨) الزمر : ١٨.

من الله لسلوكهم المنهج الصحيح في التحرّي والبحث عن الحقيقة من أجل اكتشاف الحقّ واتّباعه ، ولهذا تتحقّق الهداية لهم بأعلى مراتبها وتتجلّى في اتّباعهم الأحسن وعدم قناعتهم بالحَسن من بين مراتب الحُسن والكمال .

ثلاث رؤى

لقد ابتعدنا قليلاً عن الغرض الذي من أجله عُقد هذا المقال ، وهو تعدّد الرؤى وتعدّد أنواع التعامل مع الهداة الربانيّين صلوات الله عليهم أجمعين . ولنعُد إلى بيان هذه النقطة بالذات قبل التركيز على أسباب تعدّد الرؤى ونتائجه .

نقول : إنّ تعدّد أنواع الاستجابة واختلاف مراتبها يعود إلى تعدّد الرؤى واختلاف مراتبها وتفاوت التصوّرات التي يحملها الناس عن الأنبياء والأئمّة الهداة من حيث كونهم أناساً عاديين ، أو خروجهم عن أُفق البشرية ، أو كونهم بشراً نموذجيين .

فهنا ثلاث رؤى تتأرجح بين الإفراط والتفريط والاعتدال بالنسبة للمؤمنين بهم طبعاً . ومن هنا يتفاوت الإيمان وتتأرجح مراتبه لهذا العامل كما تتفاوت لعوامل أخرى أيضاً .

الرؤية الأولى ونتائجها : إنّ المرسلين من الأنبياء والأئمّة بشرٌ عاديون ، لا يختلفون عن غيرهم في شيء سوى أنّهم مأمورون بتبليغ مهمّة وأداء رسالة ليس إلّا . وهم قد يخطئون وقد يغفلون وقد ينحرفون كغيرهم ، وغاية ما في الأمر أن الله يسدّدهم حين التبليغ فقط وما عدا ذلك فهم لا يتجاوزون مَن سواهم .

ومن هنا لا يجد هؤلاء ضرورة لتدوين سنّة الأنبياء والأئمة وسيرتهم أو الاقتداء بها بل يرون أنّه من الممكن تجاوزها إلى غيرها ، فهم عباقرة من البشر ، وما أكثر العباقرة في عالم الإنسان على مدى التاريخ .

ومن هنا ينفتح باب **الاستحسان والقياس** في الشريعة على مصراعيه ويجتهد الصحابي ويرتقي في اجتهاده حتى يفوق النبي نفسه شأواً ومنزلةً وتصبح سنّته حجّةً يُتعامل معها كما يُتعامل مع سنّة النبي نفسه ، بل قد تقدّم سُنّة الصحابي على سنّة النبي صلى الله عليه وآله في بعض الأحوال .

وتترتّب على هذه الرؤية آثار سلبية عظيمة نستطيع أن نجد لها نماذج كثيرة في المدوّنات التاريخية التي ورثناها عن السلف .

ومن هنا نستطيع أن نفهم السرّ في تقديم اجتهاد الصحابة على نصوص

رسول الله ﷺ في حياته وبعد وفاته ، كما نفهم سرّ التقديس العجيب لبعضهم دون بعض .

إذن تتلخّص الرؤية الأولى في تغليب الجانب البشري وإغفال الجانب الإلهي والغيبي واللطف الربّاني المتمثّل في طهارتهم وعصمتهم الشاملة .

الرؤية الثانية ونتائجها: ولعلّها تمثّل ردّ الفعل للرؤية الأولى وتتلخّص في تغليب الجانب الغيبي إلى حدّ التغافل عن الجانب البشري بحيث يصبح النبي والإمام المعصوم مَلَكاً كريماً وإن كان في صورة بشر .

ومن هنا سوف تكون عصمته وطهارته هي الصفة الممتازة والمميّزة له عمّا سواه تمييزاً لا يجعل الإنسان يفكّر في الاقتداء والتأسي به ؛ لأنّ مواقفه غيبية خارجة عن متناول الفهم البشري ، ولهذا لا يمكن فهم أسرار ومواقف الأنبياء والأئمّة المعصومين ، ولا يمكن دراستها دراسة علمية موضوعية ولا الاستلهام من مواقفهم كدروسٍ عملية للحياة الإنسانية .

الرؤية الثالثة ونتائجها : وهي التي جمعت بين الجانبين البشري والغيبي وأعطت لكل جانب حقّه . فَهُم بشر مؤيَّدون ، حازوا قصب السبق في طريق الكمال واستبقوا الخيرات فكانوا من السابقين ، كما قال تعالى : ﴿ **والسابقون السابقون أُولئك المقرَّبون** ﴾[١٩] .

وبهذا استحقّوا التقديم على من سواهم . قال تعالى : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات** ﴾[٢٠] ومن هنا كانوا جديرين بأن تُحتذى خُطاهم ويُتأسى بأفعالهم وصفاتهم .

لقد حازوا على وسام العبودية الخالصة لله ، فأخلصوا له ورضي الله إخلاصَهم فاستخلصهم لنفسه وارتضاهم لدينه وجعلهم حَمَلة رسالته ووحيه والأمناء على كتابه والهداة لعباده ، فكانوا أسوةً يُقتدى بهم .

ويترتّب على ذلك لزوم دراسة مواقفهم وسيرتهم وضرورة تدوين سنّتهم لتتعرّف الأجيال على أشخاصهم وشخصيّاتهم وكمالاتهم وتؤخذ مواطن العبرة من سلوكهم الخاص والعام على حدّ سواء ؛ فإنّ عصمتهم لا تمنع من التأسي بهم ، وارتباطهم بالغيب لا يحول دون الاقتداء بهم ؛ فإنّ الارتباط بعالم الغيب يضمن لنا صحّة الاهتداء بهديهم ، ولا يخرجهم عن عالم البشرية ، ولكنّهم **النموذج الأمثل** للإنسان

---

(١٩) الواقعة : ١٠ ـ ١١ .

(٢٠) فاطر : ٣٢ .

الذي يُراد تربيته ، والكمال الذي يُراد للبشرية أن تصل إليه من خلال الاهتداء بالمفاهيم والقيم التي وعوها وبلّغوها إلى بني نوعهم ومن خلال التجسيد الحيّ لهذه المفاهيم والقيم والذي تجلّى في تفاصيل سلوكهم وسيرتهم كما قال تعالى :

١ ـ ﴿ أُولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾(٢١) .

٢ ـ ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة ﴾(٢٢) .

٣ ـ ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾(٢٣) .

٤ ـ ﴿ قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ﴾(٢٤) .

وهكذا يتّضح ان النمرقة الوسطى والرؤية العملية المُثلى والتي تؤيدها محكمات الكتاب والسنّة الشريفة هي الرؤية التي لا تُخرج الأنبياء والأئمّة عن البشرية ، قال تعالى في تأييد هذه الرؤية :

﴿ قُل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾(٢٥) .

وهذه الرؤية لا تهبط بهم دون مستواهم الواقعي الذي أهّلهم للاصطفاء والاجتباء الربّاني والذي يدور مدار ملاكات واقعية وقيم ضرورية هي التي تؤهّل الإنسان لأن يختاره الله لهداية البشرية ، قال تعالى :

﴿ وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾(٢٦) .

وقد أشار تعالى إلى ملاكاته في التشريع والتقنين قائلاً :

١ ـ ﴿ ان الله يأمر بالعدل والإحسان ... ﴾(٢٧) .

٢ ـ ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحقّ أن يُتّبَع أم من لا يهدّي إلّا أن يُهدى ... ﴾(٢٨) .

فمن بلغ الحق وكان قادراً على أن يهدي إلى الحق فهو الجدير بأن يتّبَع دون من يحتاج إلى الهادي والمرشد فإنّه غير جدير بأن يكون متبوعاً بحكم العقل وتأييدالوحي.

ومن هنا كانت دراسة سيرة المعصومين دراسة موضوعية وتحليلية ضرورة من ضرورات الفقه والأخلاق والتربية والتبليغ والإرشاد .

وعلى الحوزات العلمية أن تهتم بذلك اهتماماً جادّاً يتجلّى في برامجها الدراسية ودراساتها العُليا كي تشقّ طريقها إلى أعماق التاريخ المعطاء وتغور إلى مَعِين السيرة

---

(٢١) الأنعام : ٩٠.
(٢٢) الأحزاب : ٢١.
(٢٣) الحشر : ٧.
(٢٤) آل عمران : ٣١.
(٢٥) الكهف : ١١.
(٢٦) القصص : ٦٩.
(٢٧) النحل : ٩٠.
(٢٨) يونس : ٣٥.

الصافية من الشوائب التي علقت بها نتيجة الرؤى القاصرة أو التحريف المتعمَّد على مدى القرون .

ولقد قام أُستاذنا آية الله العظمى الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر ﷺ بمحاولة جادّة في هذا المضمار ، فسلّط الأضواء الكاشفة على سيرة أهل البيت والأدوار التي قاموا بها بعد رسول الله ﷺ من أجل صيانة الثورة النبوية المباركة من الضياع وأُمَّة سيّد المرسلين من الانهيار ودولته من الدمار وشريعة الرسول الخاتم من التحريف والتزييف والاضمحلال ، فكانوا بحقّ ورثته في العلم والعمل والهَدي والسمْت والسيرة والسلوك .

وقد تجلّت هذه المحاولة المباركة في مجموعة من المحاضرات ألقاها شهيدنا السعيد على تلامذته قبل حوالي أربعة عقود من الزمن ، وهي محاولة رائدة في هذا المضمار نلتقط معالمها وأُسسها وأُصولها ومنهجها من خلال هذه المحاضرات التي وصل إلينا بعضها وهو وافٍ باكتشاف منهجه والاقتداء به من أجل تطويره وتعميقه بالرغم من عمقه وأصالته ، وقد تميّزت هذه المحاولة بالموضوعية والاستيعاب والحداثة جميعاً .

وها نحن نقدّم لقرّاءنا الأعزّاء صورة مستخلصة من مجموعة محاضراته بحيث تتضمّن روح منهجه ومعالم اطروحته وأصول نظريته ، راجين من المولى أن يوفّقنا لإكمال الشوط الذي بدأه شهيدنا العزيز في هذا المضمار واستشهد من أجله ونحن في أمسّ الحاجة إلى مَن هو مثله علماً وهدياً وسلوكاً . فسلامٌ عليه يوم ولد ويوم استُشهد ويوم يُبعث حيّاً .

أقول : إذا أردنا أن نكتشف المعالم الأساسية لحركة أهل البيت عليهم السلام ومسيرتهم الهادية بعد رسول الله ﷺ ومدى رسالية هذه الحركة ومبدئيتها ، وقيمة دورهم الذي مثّلوه في تاريخ الرسالة الإسلامية ، ومدى نجاحهم في تحقيق أهداف الرسول ﷺ ، فعلينا أن نرجع إلى بداية الخط أوّلاً لنتلمّس واقع الرسالة الإسلامية وأهدافها ، ثم نرى مدى نجاح الرسول في تحقيق تلك الأهداف وفي تلك الظروف التي عاشها بالذات ، ثم نلاحظ الأخطار التي كانت تواجهها الرسالة وهي تريد بلوغ كامل أهدافها ، وبالتالي معرفة أنواع التحصينات التي كان بالإمكان إيجادها وتهيئتها في تلك الظروف بالنسبة لتلك الأخطار .

ثمّ بعد ذلك يمكن محاسبة ما يتبقى للأئمّة المعصومين من مجالات العمل الرساليّ

ـ السياسيّ والديني على حدّ سواء ـ في تلك الظروف لإيصال الشريعة الإسلامية إلى كامل أهدافها في مجالي النظرية والتطبيق .

وهكذا نستطيع أن نقارن بين ما كان ينبغي أن يتحقّق وما تحقّق بالفعل ؛ لنعرف مدى كونهم واقعيين في حركتهم وفي مواقفهم في شتّى الظروف والازمات.

إذن تتألّف هذه المحاولة من مقدّمة ذات مراحل ثلاث ، وتتمثّل في أسئلة ثلاث لابدّ من الإجابة عليها بالترتيب كي يتسنّى لنا أن نصل إلى روح النظرية التي قدّمها الشهيد الصدر للأمّة الإسلامية بشكل عام ولأتباع أهل البيت بشكل خاص .

ومن هنا نجده يطرح لنا وللباحثين الأسئلة الثلاث كما يلي :

١ ـ ما هي الرسالة الإسلامية ؟

٢ ـ ما هي الأخطار التي كانت تواجهها ؟

٣ ـ ما هي التحصينات ضدّ الأخطار التي كانت تواجهها ؟

ثم يأخذ بأيدينا إلى خلفيّات السؤال الأوّل فيقول : هناك نظرتان أساسيتان للكون ولموقف الإنسان من الكون .

النظرة الأولى للكون وآثارها : هي أن الكون مملكة لمليك قدير ، يراقب من وراء الستار مراقبة غير منظورة ، والإنسان في هذا الكون هو الأمين والخليفة ، وليس هو الأصيل والمتحكّم فيه ـ كما سيأتي في النظرة الثانية ـ فالإنسان مملوك ليس بمالك ، وهو يقوم بأعباء الخلافة والأمانة والرعاية لمملكة غيره ، هذه المملكة التي تسع الوجود بما فيه الإنسان نفسه .

وتستبطن الخلافةُ الأمانةَ . كما تستبطن ضرورةَ استيحاء الأمر والنهي ، والتدبير والتقدير ، والتقنين والحكم من قِبَلِ المالك القدير .

كما تستبطن الأمانةُ ضرورةَ تطبيق قرارات المالك على ما استؤمن عليه الإنسان .

ومن هنا كانت الأمانةُ تستبطن المسؤولية بلا ريب والمسؤولية تستبطن الجزاء المتمثّل في الثواب والعقاب ، وهما يستبطنان وجود عالم آخر وراء هذا العالم المنظور كي تُستوفى فيه نتائج هذه المراقبة والمسؤولية في عالم الدنيا .

وبهذا سوف لا يَسجُن الإنسان نفسه في حدود هذا العالم المادّي ولا يتقوقع في معادلاته الحسّية ولا يقنع بالنتائج القصيرة المدى لهذه الحياة ، وإنّما يتفتّح في رؤاه على عالم آخر أوسع من هذا العالم ويستهدف أهدافاً كبيرة تتناسب مع استعداداته اللامحدودة كما تتناسب مع سعة العالم الآخر الذي يترقّب الورود عليه في كل لحظة

من اللحظات .

وهكذا نجد هذه النظرة العميقة تجعل الإنسان يعيش أهدافاً كُبرى لا تُمتص ولا تستنزف في هذا العالم المادي المحدود .

وإذا انطلقت البشرية في غاياتها وأهدافها إلى حدود أبعد من حدود هذا العالم المادي المنظور وأصبحت على مستوى الأهداف الكبيرة فسوف تصبح قادرة على تحمّل أعباء تلك الأهداف الكبيرة بلا ريب .

والحضارة الإسلامية عبارة عن هذه النظرية العميقة للحياة بكل فروعها والتي تعود فيالنهاية إلى التجسيد الكامل للعلاقة مع الله سبحانه وتعالى في كل مجالات الحياة الإنسانية : الطبيعية منها والبشرية ، والفردية منها والاجتماعية جميعاً.

هذه هي خلاصة النظرة الأولى للحياة بشكل عام .

النظرة الثانية للكون وآثارها : وتتلخّص في أصالة الإنسان ، بمعنى أن يرى الإنسان نفسه أصيلاً في هذا الكون ومحوراً للحياة من دون أن يخضع لمليك مقتدر أو محاسِبٍ مراقِب من وراء الستار . فالإنسان مستقلّ لا تحدّده مسؤولية أمام أحد .

وحيث إنّ المسؤولية لا تُفرض عليه من جهة عُليا ولا يستطيع أن يتخلّى عن المسؤولية بشكل تام ، إذن هو مسؤول أمام نفسه ـ إن صحّ هذا التعبير أو كان مُجدياً ـ فهو الذي يصنع المسؤولية وتكون المسؤولية نتاج نفسه (وكل اناء بالذي فيه ينضح) . إذن ينعكس فيما يصنعه تمام ما في نفسه من ضعف ومحدودية وشهوات وتحيّزات وذاتيات.

وحينما يحدِّد لنفسه المسؤولية فإنّما يحدّدها على ضوء الأهداف التي يحملها ، وهو لا يحمل أهدافاً كبرى وراء هذا العالم المنظور ، فإنّ طريقه محدود بعالم المادة فلا تتعدّى أهدافه هذا العالم حتماً .

ومن هنا يخسر هذا الإنسان القيم الأخلاقية العُليا والتي ترتكز على الأهداف الكبرى . وإذا خسر هذه القيم تولّدت لديه ألوان من الصراع لا يمكنه التغلّب عليها والتخلّص منها . وقد أثبتت التجارب الإنسانية هذه الحقيقة في يومنا هذا .

وهكذا سوف يخسر الإنسان نفسه وكل ما يملك من قوى وطاقات ؛ لأنه سوف يهدرها في غير الطريق اللائق بها .

ومن هنا ركّزت الأديان السماوية على مفهومي التوحيد والمعاد كحقيقتين أساسيتين لا يمكن التنازل عنهما بحالٍ من الأحوال .

الأهداف الكبرى للإسلام

لقد استهدف الإسلام تربية الإنسان على النظرة الأولى للحياة بحيث تصبح هذه الرؤية جزءاً أساسيّاًمن وجوده وتجري مع دمه وعروقه وفكره وعواطفه وأحاسيسه فتنعكس على كل مجالات حياته وتتجلّى في كل تصرّفاته وأنواع سلوكه : مع الله سبحانه وتعالى ، ومع نفسه ، ومع غيره .

ولابدّ للإسلام أن يهيمن على هذا الإنسان وعلى كل طاقاته وعلاقاته ؛ ليستطيع أن يربّيه ، فإنّ الهيمنة هي الشرط الأساسي في التربية .

وكلّما كانت الهيمنة أوسع نطاقاً كانت التربية أكثر نجاحاً . وإذا لم ينجح الأب في تربية ابنه فإنّما يعود ذلك إلى عدم هيمنته على كل وجوده لأن ابنه هو ابن المجتمع أيضاً ؛ إذ يتفاعل معه ويتأثّر به ويؤثّر فيه ويتبادل معه العواطف والمشاعر والأفكار وقد يقيم معه علاقات أخلاقية وسياسية واقتصادية وغيرها ، فهو ليس ابنه وحده بل ابنه وابن المجتمع أيضاً .

والمربّي الكامل هو الذي يقوم بدور الأب والمجتمع معاً .

ومن هنا كان الإسلام نظاماً كاملاً للحياة الإنسانية ، ومن هنا أيضاً كان التصدي للحكم والمسك بزمام المجتمع ضرورة من ضرورات التربية الإسلامية الهادفة، وكان تحقيق القيم الإنسانية المُثلى هو الهدف الذي يصبو إليه نظام الحكم الإسلامي بشكل دقيق.

إنجازات الرسول الكبرى صلى الله عليه وآله

لقد ربّى الرسول صلى الله عليه وآله أمّة قبل أن يؤسّس دولة تهيمن على العلاقات الاجتماعية من خلال قيادته وزعامته الرشيدة على أساس هداية الوحي الإلهي وقيم الهداية الربّانية .

فخطّط لهذا المجتمع وبنى له كل علاقاته : علاقة الإنسان بنفسه ، وبربّه ، وبعائلته ، وبأبناء مجتمعه ، وبني نوعه ، وبالطبيعة التي يعيش فيها . . .

ومن هنا استكمل الرسول صلى الله عليه وآله في تربيته هذا الشرط الأساسي ألا وهو الهيمنة الكاملة على الإنسان المسلم ، فرداً ومجتمعاً[٢٩] .

وبالرغم من أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد مارس عملية التغيير الشاملة للمجتمع وأعرافه وأنظمته ومفاهيمه ، لكن الطريق لم يكن قصيراً أمام عملية التغيير الشاملة ، بل كان

---

(٢٩) راجع أهل البيت : تنوّع أدوار ووحدة هدف : ١١٧ ـ ١٢٢ طبعة دار التعارف .

طريقاً ممتدّاً بامتداد الفواصل المعنوية الضخمة بين الجاهلية والإسلام ، فكان على الرسول ﷺ أن يبدأ بإنسان الجاهلية فينشأه إنشاءً جديداً كي يجعل منه الإنسان الإسلاميّ الذي يحمل النور الجديد بعد أن يجتثّ منه كل جذور الجاهلية ورواسبها .

هل حقّق الرسول ﷺ أهدافه الكبرى ؟

لقد خطا الرسول الأعظم ﷺ بعملية التغيير خطوات مدهشة في تلك البرهة الزمنية القصيرة ـ أي خلال عقد واحد ـ وفي تلك الظروف الثقافية والخُلقية والاجتماعية المتردية جدّاً[٣٠] .

فكانت النقلة من الجاهلية الجهلاء إلى الرؤية الإسلامية النقيّة نقلةً كبيرة جدّاً .

ولقد أنتجت التربية النبوية انتاجاً عظيماً وحقّقت تحوّلاً فريداً من نوعه . ولكن الأمّة الإسلامية ـ ككل ـ لم تكن قد عاشت في ظل عملية التغيير هذه إلّا عقداً واحداً من الزمن على أكثر تقدير .

وهذا الزمن لا يكفي عادةً في منطق الرسالات العقائدية والدعوات التغييرية ليرتفع الجيل الذي عاش في كنف الدعوة عشر سنوات فقط إلى درجة من الوعي والموضوعية والتحرّر من رواسب الماضي ، والاستيعاب لمعطيات الدعوة الجديدة لتؤهّله للقيمومة على الرسالة وتحمّل مسؤوليات الدعوة ومواصلة عملية التغيير بدون قائد .

بل إن منطق الرسالات العقائدية يفرض أن تمرّ الأمّة بوصاية عقائدية فترة أطول من الزمن تهيئها للارتفاع إلى مستوى تلك القيمومة[٣١] .

ومن هنا كان يلزم ـ منطقياً باعتبار أن الإسلام يريد تحقيق أهدافه كاملة ـ أن يستمر تطبيقه على يد الرسول نفسه فيمتدّ به العمر حتى يستكمل كل الشروط اللّازمة للتربية الشاملة في فترة زمنية كافية ، أو يوكل أمر تطبيق الإسلام إلى مَن يخلفه من القادة الأكفّاء الذين بلغوا درجة العصمة في مستواهم العقائدي والفكري والعملي ليصونوا أمر التربية من أي انحراف أو انهيار .

منطق العمل التغييري

إذن منطق العمل التغييري على مسار التاريخ كان يفرض على النبي ﷺ أن يصون تجربته من أيّ ضعف أو اندحار ، وقد لاحظ الرسول ذلك وعمل على أساس

---

(٣٠) بحث حول الولاية : ١٥ طبعة دار التعارف .

(٣١) راجع المصدر نفسه : ٥٩ .

هذا المنطق القويم فخططّ لاستمرار الوصاية على التجربة الانقلابية الجديدة المتمثّلة في أهل بيته المعصومين والذين أعدّهم بنفسه إعداداً رسالياً وقيادياً خاصّاً ليكونوا قادرين على مواصلة عملية التغيير فكرياً وعملياً بالشكل المطلوب والمنسجم مع أهدافه الرسالية الكبرى .

الأخطار التي كانت تواجه الإسلام عند غياب الرسول

لم يكن الإسلام نظرية بشرية لكي تتحدّد فكرياً من خلال الممارسة والتطبيق وتتبلور مفاهيمه عبر التجربة المخلصة ، وإنّما هو رسالة الله التي حُدِّدت فيها الأحكام والمفاهيم وزوِّدت ربّانياً بكل التشريعات العامّة التي تتطلّبها التجربة .

فلابدّ لزعامة هذه التجربة من أن تستوعب الرسالة بحدودها وتفاصيلها وتعي بشكل كامل جميع أحكامها ومفاهيمها ، وإلّا كانت مضطرّةً إلى استلهام مسبقاتها الذهنية ومرتكزاتها القَبْليّة وأدّى ذلك إلى نكسة في مسيرة التجربة وبخاصة إذا لاحظنا أن الإسلام كان هو الرسالة الخاتمة لرسالات السماء والتي يجب أن تمتدّ مع الزمن وتتعدّى كل الحدود الوقتية والإقليمية والقوميّة ، الأمر الذي لا يسمح بأن تمارس زعامته ـ التي تشكّل الأساس لكل ذلك الامتداد ـ تجارب الخطأ والصواب والتي تتراكم فيها الأخطاء عبر فترة من الزمن حتى تشكّل ثغرة تهدّد التجربة بالسقوط والانهيار[٣٢].

انحراف التجربة ومصادرة الأهداف الكبرى

وقد برهنت الأحداث التي وقعت بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة وقبل أن يدفَن الرسول ويوارى في قبره على هذه الحقيقة ، وتجلّت آثارها السلبية بعد نصف قرن أو أقلّ من ممارسة جيل المهاجرين الذين لم يرشّحوا من قِبَلِ الرسول ﷺ لإمامة الدعوة ولم يكونوا مؤهّلين للقيمومة عليها[٣٣].

فلم يمض ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجّهها أعداء الإسلام القُدامى إذ استطاعوا أن يتسلّلوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغلّوا القيادة غير الواعية ثم صادروا بكل وقاحة وعنف تلك القيادة

---

(٣٢) راجع المصدر : ٥٧ ـ ٥٨ .

(٣٣) راجع (نشأة التشيع والشيعة) او (بحث حول الولاية) للشهيد الصدر للوقوف على مظاهر وأسباب عدم كون المهاجرين والانصار بشكل عام مؤهّلين للقيمومة على التجربة النبوية الخاتمة .

وأجبروا الأمّة وجيلها الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته التي عيّنها الله ورسوله لها وتحوّلت الزعامة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويقتل الأبرياء ويبعثر الأموال ويعطّل الحدود ويجمّد الأحكام ويتلاعب بمقدّرات الناس وأصبح الفيء والسواد بستاناً لقريش ، والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية(٣٤) .

مصادرة القيادة ومضاعفاتها

إذن ، فالإسلام قد واجه بعد النبي ﷺ انحرافاً خطيراً في صميم التجربة الإسلامية التي أنشأها النبي ﷺ للمجتمع الإسلامي والأمّة الإسلامية . وهذا الانحراف في التجربة الاجتماعية السياسية للأمّة وفي الدولة الإسلامية كان بحسب طبيعة الأشياء من المفروض أن يتّسع ليتعمّق بالتدريج على مرّ الزمن ؛ إذ الانحراف يبدأ بذرة وتنمو هذه البذرة ، وكلّما تحقّقت مرحلة من الانحراف مهّدت لمرحلة أوسع وأرحب .

فكان من المفروض أن يصل هذا الانحراف إلى خط منحنٍ طوال عملية تأريخية زمنية طويلة المدى يصل به إلى الهاوية فتمر التجربة الإسلامية للمجتمع والدولة لتصبح مليئة بالتناقضات من كل جهة ومن كل صوب وتصبح عاجزة عن مجاراة ومواكبة الحدّ الأدنى من حاجات الأمّة ومصالحها حتى تُعلن عن إفلاسها نهائياً عن مواكبة الحدّ الأدنى من حاجات الإنسانية وعن الحلول اللازمة بالحدّ الأدنى للقضايا التي تتبنّاها وللرسالة التي تعلن عنها .

وحينما يتسلسل الانحراف في خط تصاعدي ، فمن المنطقي في فهم تسلسل الأحداث أن تتعرّض التجربة بعد مدى من الزمن لانهيار كامل .

وهذا يعني ان الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية لقيادة المجتمع كان من المفروض أن تتعرّض للانهيار الكامل ؛ لأنّ هذه التجربة حين تصبح مليئة بالتناقضات وحين تصبح عاجزة عن مواجهة وظائفها الحقيقية ، تصبح عاجزة عن حماية نفسها ؛ لأن التجربة تكون قد استنفذت إمكانية البقاء والاستمرار على مسرح التاريخ ، كما أن الأمّة ليست على مستوى حمايتها ؛ لأن الأمّة لا تجني من هذه التجربة الخير الذي تفكّر فيه ، ولا تحقّق عن طريق هذه التجربة الآمال التي تصبو إليها ، فلا ترتبط بأيّ ارتباط حياتي حقيقي معها ، فالمفروض أن تنهار هذه التجربة في مدى من الزمن كنتيجة نهائية وخاتمة حتميّة لبذرة الانحراف التي غرست فيها .

---

(٣٤) راجع المصدر : ٦٠ـ٦١ .

انهيار الدولة وسقوط الحضارة الإسلامية

ومعنى انهيار الدولة الإسلامية أن تسقط الحضارة الإسلامية وتتخلّى عن قيادة المجتمع ويتفكّك المجتمع الإسلامي ، ويُقصى الإسلام عن مركزه كقائد للمجتمع وكقائد للأمّة ، لكن الأمّة تبقى طبعاً حين تفشل تجربة المجتمع والدولة ولكنها سوف تنهار أمام أوّل غزو يغزوها ، كما انهارت أمام الغزو التتري الذي واجه الخلافة العباسية .

وهذا الانهيار يعني أن الدولة والتجربة قد سقطت وأن الأمّة بقيت . لكن هذه الأمّة أيضاً بحسب تسلسل الأحداث من المحتّم أن تنهار كأُمّة تدين بالإسلام وتؤمن به وتتفاعل معه ، لأن هذه الأمّة قد عاشت الإسلام الصحيح زمناً قصيراً جدّاً ، وهو الزمن الذي مارس فيه شخص الرسول الأعظم ﷺ زعامة التجربة ، وبعده عاشت الأمّة التجربةَ المنحرفةَ التي لم تستطع أن تعمّق الإسلام وتعمّق المسؤولية تجاه عقيدتها ، ولم تستطع أن تثقّفها وتحصّنها وتزوّدها بالضمانات الكافية لئلّا تنهار أمام الحضارة الجديدة والغزو الجديد والأفكار الجديدة التي يحملها الغازي إلى بلاد الإسلام ، ولن تجد هذه الأمّة نفسها قادرة على تحصين نفسها بعد انهيار التجربة والدولة والحضارة بعدما أُهينت كرامتها وحُطّمت إرادتها وغُلّت أياديها عن طريق الزعامات التي مارست تلك التجربة المنحرفة وبعد أن فقدت روحها الحقيقية ؛ لأن تلك الزعامات كانت تريد إخضاعها لزعامتها القسرية .

إنّ هذه الأمّة سوف تنهار بالاندماج مع العالَم الكافر الذي غزاها وسوف تذوب الرسالة والعقيدة أيضاً وتصبح الأمّة خَبَراً بعد أن كانت أمراً حقيقياً على مسرح التاريخ، وبهذا ينتهي دور الإسلام نهائياً[٣٥] .

التسلسل المنطقي للأحداث ودور الأئمّة الراشدين

هذا هو التسلسل المنطقي بقطع النظر عن دور الأئمّة المعصومين الذين أُوكلت إليهم مهمّة صيانة التجربة الإسلامية المتمثّلة في (القيادة الإسلامية والدولة الإسلامية والأمّة المسلمة والرسالة الإسلامية جميعاً .

ويتلخّص دور الأئمّة الراشدين الذين اختارهم الله تعالى ونصّ عليهم

---

(٣٥) أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف : ١٢٧ ـ ١٢٨ .

الرسول ﷺ[٣٦] لصيانة الإسلام وتطبيقه في الأمّة وتربية الإنسانية على أساس هذا الإسلام الخالد وصيانة دولة الرسول الخاتم الفتيّة من الانهيار والتردّي في أمرين مهمّين وخطّين أساسيين ، بعد أن كانت التجربة الإسلامية تشتمل على عناصر ثلاثة باعتبارها عملية تربية تتكوّن من فاعل هو المربّي ومن تنظيم يُستمدّ من قِبل الشريعة ومن حقل لهذا التنظيم وهو الأمّة و(المجتمع)[٣٧] .

إن الانحراف الذي بدأ يغيّر هذه العناصر الثلاثة انطلق من افتقاد المربّي الكفوء للأمّة بوفاة رسول الله ﷺ .

وكان انهدام هذا العنصر كفيلاً بهدم العنصرين الآخرين ؛ إذ لم يكن من جاء بعد النبي ﷺ لقيادة التجربة كفوءاً[٣٨] لقيادتها كالنبي نفسه علماً وعصمةً ونزاهةً وقدرةً وشجاعة وكمالاً ، وإنّما تزّعمها من لم يكن معصوماً ومنصهراً في حقيقة الرسالة ولم يكن حائزاً على الضمانات اللّازمة لصيانة الدولة والأمّة عن الانحراف عن الخط الذي رسمه رسول الله ﷺ لهذه الأمّة ، ذلك الانحراف الذي لم يتصوّر المسلمون مدى عمقه ومدى تأثيره السلبيّ على الدولة والأمّة والشريعة جميعاً على طول الخط ولعلّهم قد اعتبروه تغيير شخص لا تغيير خط[٣٩] .

تحصين الأمّة ومحاولة استلام زمام الحكم

والخطّان الرئيسان اللّذان عمل الأئمّة فيهما ووظّفوا نشاطهم باتّجاههما ، هما :

١ ـ خط تحصين الأمّة ضد الانهيار بعد سقوط التجربة وإعطائها من المقوّمات القدر الكافي لكي تبقى واقفة بقدم راسخة وبروح مجاهدة وبإيمان ثابت .

٢ ـ خط محاولة تسلّم زمام التجربة وزمام الدولة ومحو آثار الانحراف وإرجاع القيادة إلى موضعها الطبيعي لتكتمل عناصر التربية وتتلاحم الأمّة والمجتمع مع الدولة والقيادة الرشيدة .

أما الخط الثاني فكان على الأئمّة الراشدين أن يقوموا له بإعدادٍ طويل المدى من أجل تهيئة الظروف الموضوعية اللازمة التي تتناسب مع مجموعة القيم والأهداف

---

(٣٦) راجع موسوعة الغدير ، المراجعات ، إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات ، قادتنا ، عبقات الأنوار ، إحقاق الحق .

(٣٧) راجع المصدر نفسه ص ١٢٢ .

(٣٨) راجع : (لاهل البيت عليهم السلام تنوّع أدوار ووحدة هدف)، للاطلاع تفصيلاً على أسباب عدم الكفاءة .

(٣٩) يصار إلى خطبة الزهراء عليها السلام التي تنبأت بهذه الحقيقة ، وتنبأ بها من قبلُ رسولُ الله ﷺ أيضاً .

والأحكام الأساسية التي جاءت بها الرسالة الإسلامية وأُريد تحقيقها من خلال الحكم وممارسة الزعامة باسم الإسلام القيّم وباسم الله الذي شرّع للإنسان ما ينتهي به إلى كماله اللائق .

موقف الأئمّة عليهم السلام من استلام زمام الحكم

لقد كان رأي الأئمّة المعصومين عليهم السلام في استلام زمام الحكم «ان الانتصار المسلّح الآني غير كافٍ لإقا مة دعائم الحكم الإسلامي المستقرّ ، بل يتوقّف ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وبعصمته إيماناً مطلقاً يعيش أهدافه الكبيرة ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس ما يحقّقه للأمّة من مصالح أرادها الله لها» .

وأمّا الخط الأوّل فهو الخط الذي لا يتنافى مع كل الظروف القاهرة وكان يمارسه الأئمّة حتى في حالة الشعور بعدم توفّر الظروف الموضوعية التي تهيئ الإمام لخوض معركة يتسلّم من خلالها زمام الحكم من جديد .

ا ن هذا الدور وهذا الخط هو خط تعميق الرسالة، فكرياً وروحيّاً وسياسيّاً، للأمّة نفسها؛ بغية إيجاد تحصين كافٍ في صفوفها يمنعها من الانهيار بعد تردّي التجربة وسقوطها، وذلك بإيجاد قواعد واعية في الأمّة أوّلاً، وإيجاد روح رسالية وعواطف صادقة تجاه هذه الرسالة في الأمّة ثانياً[٤٠] .

حماية الرسالة والأمّة والدولة

إنّ عمل الأئمّة الأطهار عليهم السلام في هذين الخطّين يستلزم قيامهم بدور رسالي إيجابي وفعّال على طول الخط لحفظ (الرسالة الإسلامية) و (الأمّة الإسلامية) و (الدولة الإسلامية) وحماية كل منها باستمرار .

وكلّما كان الانحراف يشتدّ كان الأئمّة عليهم السلام يتّخذون التدابير اللّازمة ضد ذلك.

وكلّما وقعت محنة للعقيدة أو التجربة الإسلامية وعجزت الزعامات المنحرفة من علاجها ـ بحكم عدم كفاءتها ـ بادر الأئمّة الأطهار عليهم السلام إلى تقديم الحلّ ووقاية الأمّة من الأخطار التي كانت تهدّدها .

فالأئمّة من أهل البيت عليهم السلام كانوا يحافظون على المقياس العقائدي في المجتمع الإسلامي إلى درجةٍ لا تنتهي بالأمّة إلى الخَطر الماحق لها .

---

(٤٠) راجع المصدر السابق ص ١٣١ـ ١٣٢ و ١٤٧ـ ١٤٨.

تعدّد مجالات عمل الأئمّة عليهم السلام

ومن هنا تنوّعت أعمال الأئمّة الأطهار عليهم السلام في مجالات شتّى باعتبار تعدّد العلاقات، وتعدّد الجوانب ، والمهامّ التي تهمّهم كقيادة واعية رشيدة تريد تطبيق الإسلام وحفظه وضمان خلوده للإنسانية جمعاء .

فالأئمّة المعصومون عليهم السلام مسؤولون عن صيانة تراث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وثمار ثورته المباركة وجهوده الكريمة المتمثّلة في :

١ ـ الشريعة والرسالة التي جاء بها من عند الله والتي تجسّدت في الكتاب المجيد والسنّة الشريفة .

٢ ـ الأمّة التي كوّنها وربّاها بيديه الكريمتين .

٣ ـ المجتمع السياسي الإسلامي الذي أوجده والدولة التي أسسها وشيّد أركانها .

٤ ـ القيادةالنموذجية التي حقّقها وربّى من يكون كفوءاً لتجسيدها من أهل بيته عليهم السلام.

التسلسل المنطقي للأهداف والمجالات

إنّ عدم إمكان الحفاظ على المركز القيادي الذي رُشّحوا له وانتُخبوا لاستلامه من أجل تربية الأمّة من خلاله لا يحول دون الاهتمام بمهمّة الحفاظ على المجتمع الإسلامي ككيان سياسي للإسلام وصيانة الدولة الإسلامية من الانهيار بالقدر الممكن لهم بالفعل وبمقدار ما تسمح به الظروف المحيطة بهم .

كما أن سقوط الدولة الإسلامية لا يحول دون الاهتمام بالأمّة كأُمّة مسلمة ودون الاهتمام بالرسالة والشريعة كقانون إلهي ودستور ربّاني للبشرية وصيانة كلّ منهما من الانهيار التام .

اذن تترتب المجالات الأربعة من حيث الأهمية كما صنّفناها على الترتيب التالي : الشريعة ، فالأمّة ، فالدولة ، فالقيادة.

أسباب تنوّع الأدوار في حركة الأئمة عليهم السلام

لقد تنوّعت مجالات عمل الأئمّة جميعاً بالرغم من اختلاف ظروفهم باعتبار الأسباب والجهات التالية :

١ ـ من حيث نوع الحكم القائم .

٢ ـ من حيث درجة ثقافة الأمّة ومدى وعيها وإيمانها ومعرفتها بالأئمّة عليهم السلام .

٣ ـ من حيث مدى انقياد الأمّة للحكّام المنحرفين .

٤ ـ من حيث نوع الظروف المحيطة بالكيان السياسي للدولة الإسلامية .

٥ ـ من حيث درجة التزام الحكّام بالإسلام .

٦ ـ من حيث نوع الأدوات التي كان يستخدمها الحكّام لدعم حكمهم وإحكام سيطرتهم . . .

موقف الأئمّة عليهم السلام من انحراف الحكّام

وكان للأئمّة عليهم السلام نشاط مستمرّ تجاه الحكم القائم والزعامات المنحرفة وقد تمثّل في: إيقاف الحاكم عن المزيد من الانحراف **بالتوجيه الكلاميّ** تارة[٤١] **أو بالثورة المسلّحة** ضدّه تارة أخرى[٤٢] حينما كان يشكّل انحرافه خطراً ماحقاً وإن كلّفهم ذلك حياتهم ، **أو عن طريق إيجاد المعارضة** المستمرة ودعمها بشكل وآخر مرة ثالثة من أجل زعزعة القيادة المنحرفة[٤٣] بالرغم من دعمهم للدولة الإسلامية بشكل غير مباشر حينما كانت تواجه خطراً ماحقاً أمام الكيانات الكافرة[٤٤] .

الأئمّة عليهم السلام وتربية الأمّة

وكان للأئمّة عليهم السلام نشاط مستمر في مجال تربية الأمّة عقائدياً وأخلاقياً وسياسياً وذلك من خلال : تربية الأصحاب العلماء والكوادر العلمية والشخصيات النموذجية التي تقوم بمهمّة نشر الوعي والفكر الإسلامي وتصحيح الأخطاء في فهم الرسالة والشريعة ،ومواجهة التيّارات الفكرية الحاقدة والمنحرفة أو التيّارات السياسية الخاصّة التي كان يستخدمها الحاكم المنحرف لدعم زعامته .

لقد قدّم الأئمّة الأطهار عليهم السلام للأمّة البديل الصالح للزعامة والحكم فكرياً وأخلاقياً وسياسياً ، والذي كان يتمثّل في زعامتهم المشروعة للأمّة .

وقاموا بجهاد فكري وثقافي كبير من أجل تصعيد درجة وعي الأمّة ودفعها للإيمان بزعامتهم وأحقيّتهم بالخلافة وتصعيد درجة إيمانها بإمامتهم وقيادتهم .

---

(٤١) كالإمام علي عليه السلام تجاه الخلفاء، والإمام الحسن عليه السلام تجاه معاوية بعد الصلح .

(٤٢) كالإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد .

(٤٣) كموقف الإمام السجّاد عليه السلام من حركة المختار، وموقف الإمام الصادق عليه السلام من حركة زيد بن علي عليه السلام .

(٤٤) كموقف الإمام السجّاد والباقر عليهما السلام تجاه مشكلة استقلال النقد للدولة الإسلامية .

الأئمّة عليهم السلام وكسب الجماهير

هذا فضلاً عن نزول الأئمّة عليهم السلام إلى ساحة الحياة العامة والارتباط العملي بالأمّة بشكل مباشر والتعاطف مع قطّاع واسع من المسلمين ؛ فإنّ الزعامة الجماهيرية الواسعة النطاق التي كان يتمتّع بها أئمّة أهل البيت عليهم السلام على مدى عدّة قرون لم يحصل عليها أهل البيت عليهم السلام صدفة أو لمجرّد الانتماء لرسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وذلك لوجود كثير ممّن كان ينتسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يكن يحظى بهذا الولاء[٤٥] ، وذلك لأنّ الأمّة لا تمنح على الأغلب الزعامة مجّاناً ولا يملك الفرد قيادتها وميل قلوبها من دون عطاء سخيّ منه في مختلف مجالات اهتمام الأمّة ومشاكلها وهمومها .

سلامة النظرية وتشويه التطبيق

وهكذا خرج الإسلام على مستوى النظرية سليماً من الانحراف وإن شُوِّهت معالم التطبيق ، وتحوّلت الأمّة إلى أمّة عقائدية تقف بوجه الغزو الفكري السياسي الكافر واستطاعت بعد قرون أن تسترجع قدرتها وروحها الرسالية كما لاحظناه في هذا القرن الذي نعيشه وهو عصر النهضة الإسلامية المباركة ، بعد عصور الانهيار والتردّي .

الأئمّة الأطهار عليهم السلام وبناء الجماعة الصالحة (شيعة أهل البيت)

لقد حقّق الأئمّة الأطهار عليهم السلام كلّ هذه الانتصارات بفضل اهتمامهم البليغ بتربية الجماعة الصالحة التي تؤمن بهم وبإمامتهم ؛ إذ أشرفوا على :

١ ـ تنمية وعيها .

٢ ـ وتنمية إيمانها .

٣ ـ من خلال التخطيط المناسب لسلوكها .

٤ ـ وحمايتها باستمرار .

٥ ـ وإسعافها بكل الأساليب التي كانت تساعد على صمودها في خضمّ المحن .

٦ ـ وارتفاعها إلى مستوى جيش عقائدي رسالي يعيش هموم الرسالة ويعمل على صيانة الرسالة ونشرها وتطبيقها ليل نهار .

---

(٤٥) كما نلاحظ موقف الحجّاج المسلمين في قضية حجّ الإمام السجاد عليه السلام وإفراجهم المطاف له وهشام بن عبدالملك بن مروان يتجرع الغيظ لعدم اكتراث الحجّاج به .

مراحل حركة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام

وإذا رجعنا إلى تاريخ أهل البيت عليهم السلام والظروف المحيطة بهم ولاحظنا كل سلوكهم ومجموع مواقفهم العامّة والخاصّة استطعنا أن نصنِّف ظروفهم مع مواقفهم إلى مراحل وأدوار ثلاثة يتميّز بعضها عن بعض ، بالرغم من اشتراكهم في كثير من الظروف والمواقف ولكن هذه الأدوار الثلاثة إنّما تتنوّع باعتبار الظواهر العامة التي تشكّل خطّاً عامّاً وفصلاً مميّزاً لكل عصر .

المرحلة الأولى : هي (مرحلة تفادي صدمة الانحراف) بدأت بوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وتجسّدت في مسيرة ومواقف الأئمّة الأربعة : **علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين** عليهم السلام ، إذ قام هؤلاء الأئمّة الأربعة بالتحصينات اللّازمة لصيانة العناصر الأساسية للرسالة من الانهيار . وهم وإن لم يستطيعوا القضاء على القيادة المنحرفة لكنّهم استطاعوا كشف زيفها والمحافظة على الرسالة الإسلامية نفسها أمام التيّار الجاهلي المنحرف .

وبالطبع فانهم لم يهملوا الأمّة أو الدولة الإسلامية بشكل عام من رعايتهم واهتماماتهم فيما يرتبط بالكيان الإسلامي وبالأمّة المسلمة ، فضلاً عن سعيهم البليغ في تكوين كتلة صالحة مؤمنة بعصمتهم وقيادتهم .

المرحلة الثانية : وبدأت بالشطر الثاني من حياة الإمام السجّاد السياسية حتى الإمام الكاظم عليه السلام ، وتميّزت بأمرين أساسيين :

١ ـ هدم تحصينات الخلافة المنحرفة بعد أن بدأ الخلفاء يحصّنون أنفسهم بالدعم الذي كان يقدّمه لهم طبقة من المحدِّثين والعلماء الذين عرفوا بـ(وعّاظ السلاطين) وذلك من خلال تأييد شرعيتهم وبإظهار الولاء لهم أو نقل أحاديث تسند عرشهم .

وبعد أن استطاع الأئمّة عليهم السلام في المرحلة الأولى أن يكشفوا زيف خط الخلافة وأن يحسسوا الأمّة بحقيقة الانحراف الذي حصل في مركز القيادة بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله استطاع هؤلاء الأئمة الأربعة أن يكشفوا زيف العلماء المحيطين بالخلفاء ويفضحوا واقعهم ومدى انحرافهم عن الخط الرسالي الصحيح .

٢ ـ وأما فيما يرتبط ببناء الجماعة الصالحة الذي أُرسيت دعائمه في المرحلة الأولى فقد تصدّى هؤلاء الأئمّة في هذه المرحلة إلى تحديد الإطار التفصيلي لها وإيضاح معالم الخط الرسالي الذي اؤتمن الأئمّة عليهم السلام عليه والذي تمثَّل في تبيين ونشر معالم النظرية الإسلامية الناصعة وتربية أجيال من العلماء على أساس هذه الثقافة

الإسلامية الناصعة في قِبال خط الخلافة الثقافي والفقهي وهو خط وعّاظ السلاطين .

هذا فضلاً عن تصدّيهم لدفع الشبهات وكشف زيف الفرق المذهبية التي استحدثت من قبل خط الخلافة ، بشكل مباشر أو غير مباشر .

والأئمّة في هذه المرحلة لم يتوانوا في زعزعة الزعامات والقيادات المنحرفة من خلال دعم بعض خطوط المعارضة للسلطة لاسيما بعض الخطوط الثورية منها والتي كانت تتصدّى لمواجهة السلطة بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام .

المرحلة الثالثة : من حياة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام فقد بدأت بفترة من حياة الإمام الكاظم عليه السلام وانتهت بالإمام العسكري عليه السلام ، فإنه بعد وضع التحصينات اللازمة للكتلة الصالحة ورسم المعالم والخطوط التفصيلية لها فكرياً وعقائدياً وأخلاقياً وسياسياً في المرحلة الثانية بدا للخلفاء أن قيادة أهل البيت عليهم السلام أصبحت بمستوى تسلّم زمام الحكم والعودة بالمجتمع الإسلامي إلى حظيرة الإسلام الحقيقي ، ممّا خلّف ردود فعل للخلفاء تجاه الأئمّة الأطهار عليهم السلام بخاصّة اذا لاحظنا وصول الأخبار التي تبشّر بالمهدي من أهل البيت عليهم السلام الى مسامعهم واقتراب عصر ولادته كما عيّنه النبي صلى الله عليه وآله وسائر آبائه الكرام ، والمتغيّر الأساسي هنا هو طبيعة موقف الخليفة الحاكم من كل إمام . وكانت مواقف الأئمّة طبعاً تجاه الخلفاء تتناسب مع نوع الموقف الذي يتخذه الخليفة تجاههم وتجاه إمامتهم .

معالم وآفاق الجماعة الصالحة

وأمّا فيما يرتبط بالجماعة الصالحة التي أوضحوا لها معالم خطّها فقد عمل الأئمّة عليهم السلام على دفعها نحو الثبات والاستقرار والانتشار كي يستحيل القضاء عليها ، ثم أعطوها درجة من الاستقلال الذاتي ؛ إذ كان يقدّر الأئمّة انّهم بعد تصعيد المواجهة المستمرّة ضدّهم من جانب الخلفاء سوف لا يُسمح لهم بالمكث الطويل بين ظهرانيهم وسوف لن يتركهم الخلفاء أحراراً بعد أن تبيّن زيفهم واتّضحت لهم المكانة الشعبية للأئمّة عليهم السلام الذين كانوا يعبّرون عن الزعامة الشرعية والواقعية للأمّة الإسلامية . ومن هنا نجد أنّ محاولة التصفية الحقيقية لهم قد أسفرت النقاب عن وجهها حينما نلاحظ استشهاد أربعة ائمة خلال خمسين سنة (٢٠٣ ـ ٢٦٠ هـ) ، وفي هذه التصفية المستعجلة دلالة واضحة على مدى خوف الخلفاء من حضور الأئمة الأطهار في المجتمع الاسلامي بالرغم من عدم تظاهرهم بالنشاط السياسي البارز .

امتداد خطّ الإمامة على يد الفقهاء الامناء على الرسالة

لقد تجلّت ظاهرة تربية الفقهاء بشكل واسع ثم إرجاع الناس إليهم وتدريبهم على مراجعتهم في قضاياهم وشؤونهم تمهيداً للغيبة التي لا يعلم مداها إلّا الله سبحانه والتي أخبر الرسول ﷺ عن وقوعها وتحقّقها وأملت الظروف الموضوعية عليهم الانصياع إليها .

هل حقّق الأئمّة أهداف الرسول؟

وهكذا استطاع الأئمة عليهم السلام ضمن تخطيط بعيد المدى أن يقفوا بوجه التسلسل الطبيعي لمضاعفات انحراف القيادة الإسلامية والتي كادت تنتهي بتنازل الأمّة عن الإسلام الصحيح وبالتالي ضمور الشريعة وانهيار الرسالة الإلهية بشكل كامل .

«إنّ السبب الحقيقي الذي جعل الأمّة لا تتنازل عن الإسلام هو أن الإسلام قُدّم له مثل آخر واضح المعالم ، أصيل المُثُل والقيم ، أصيل الأهداف والغايات ، وقدّمت هذه الأطروحة من قِبل الواعين من المسلمين بزعامة الأئمّة من أهل البيت المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً .

إنّ هذه الأطروحة التي قدّمها الأئمّة للإسلام لم ينحصر التفاعل معها بالشيعة المؤمنين بإمامة أهل البيت عليهم السلام فقط ، بل كانت ذات صدىً كبير في كل العالم الإسلامي .

فالأئمّة كانت لهم أطروحة كاملة للإسلام المحمّدي وكانت لهم دعوى الإمامة ، وهذه الدعوى وإن لم يطلبوا لها إلّا عدداً ضئيلاً من مجموع الأمّة الإسلامية ، ولكن الأمّة بمجموعها تفاعلت مع هذه الأطروحة النموذجية للإسلام في جميع أبعاده الفردية والاجتماعية ، وهذا هو الذي جعل المسلمين على مرّ الزمن يسهرون على الإسلام ويقيمونه وينظرون إليه بمنظار آخر غير منظار الواقع الذي كانوا يعيشونه من خلال الحكم القائم»[٤٦] .

وهكذا استطاع الأئمة عليهم السلام بتخطيط من الرسول الاعظم ﷺ أن يقفوا بوجه التحريف العظيم الذي تعرّضت له الرسالة الإسلامية على طول الخط .

---

(٤٦) راجع المصدر : ٧٩ ـ ٨٠ .